من تراب الطريق (٣٦٠) الدكتور مصطفى محمود(*) ورحلته من الشك إلى الإيمان!

فى هذا الكتاب طرح الدكتور مصطفى محمود الذى ودعنا من أيام، رحلة روحية قطعها ليهتدى إلى نور اليقين .. يروى كيف أتاه هذا اليقين من خلال تأمله فى إبداع الخالق عزّ وجلّ فى الكون وفى خلقه وخلق غيره من الكائنات .. يروى الدكتور مصطفى محمود كيف مرّ برحلة طويلة عمرها ثلاثون سنة قطعها بين الكتب والمجلدات والخلوة والتأمل والحوار .. جذبه فى البداية العقل العلمى المادى البحت .. بدأ به رحلته فى عالم العقيدة ، ولكنه رغم إغراقه به فى الماديات التى لا تعترف إلاّ بالمحسوسات وتنكر جميع الغيبيات - لم يستطع أن ينفى أو يستبعد الحقيقة الإلهية .. فقد لمس الكون أمامه مبنيا وفق هندسة وقوانين دقيقة ، ويتحرك بحساب محكم من الذرة إلى المجرة الهائلة التى تحوى مئات وآلاف الملايين من الشموس .. أمده العلم وقتئذ بوسيلة يتصور بها الحق بطريقة مادية ، ولكنه وقع فى أسر فكرة الوجود الهندية وفكرة برجسون عن الطاقة الباطنة الخلاقة التى تبدأ من الحواس ولا تقبل المغيبات .. ومرة أخرى كان العلم دليله ومنقذه .. عرف به أن جميع الموجودات تُرَد إلى خامة واحدة ، وما الخلاف بين صنف وصنف أو مخلوق ومخلوق إلاّ خلاف فى العلاقة الكيفية أو الكمية .. أما الخامة فواحدة .. ووحدة الأسلوب والقوانين والخامات تعنى بالقطع أن خالقها واحد .. وبلا

(*) المال ١٨/ ١١/ ٢٠٠٩

شريك .. وأن عقل هذا الخالق كلى شامل ومحيط يلهم مخلوقاته ويهديها فى رحلة تطورها ويسلحها بوسائل البقاء .. فهو ـ سبحانه ـ يخلق لبذور الأشجار الصحراوية أجنحة لتستطيع أن تعبر الصحارى الجرداء بحثًا عن ماء وعن ظروف إنباتية مواتية .. البعوضة مثلا : لا تعرف بداهة قانون أرشميدس فى الطفو حتى تصنع لبيضها أكياسًا يستطيع بها البيض أن يطفو على سطح الماء الذى تضعها فيه .. إذن فهو العقل الكلى الشامل الذى خلق فسوّى ، وجعل لكل شىء سببا ..

يروى الطبيب الفيلسوف مصطفى محمود كيف استطاع أن يروى أشواقه فى بحثه عن الذات الإلهية .. عرف بالعلم أن الكون ليس أزليًا ، وإنما هو مخلوق كان له بداية ، وإلاّ لكان التبادل الحرارى ـ وفقًا للقانون الثانى للديناميكا الحرارية ـ قد توقف من آبادٍ طويلة بين شتى الأجرام السماوية ، ولتوقفت كل صور الحياة وانتهى كل شىء .. والقيامة الصغرى التى نراها حولنا من موت الحضارات والأفراد والنجوم وغيرها .. ماهى إلاّ صورة تدلنا على القيامة الكبرى التى لابد أن ينتهى إليها الكون ..

والجسد .. سؤال آخر ظل حائرًا فى ذهن الدكتور مصطفى محمود حتى أتاه الجواب : الأجساد كلها من أصل واحد .. من خامة واحدة ، ولكن لكل فرد منا فرديته الخاصة به .. لماذا ؟ .. الفرق ناتج ليس فقط عن الاختلاف الكمّى فى الذرات ، وإنما أيضا عن اختلاف أكبر وأعقد فى العلاقات بين تلك الذرات وكيفيات الترابط بينها .. تماما كالكتب التى تختلف عن بعضها عظيم الاختلاف مع أنها جميعًا تتألف من عدد معين لايزيد ولا ينقص من الحروف الأبجدية للغة المكتوبة بها ..

والسياحة فى الجسد ، مليئة بالأعاجيب التى تُذْهِبُ الشك وتأتى

بالإيمان واليقين .. لقد بلغ من التفرد أن بصمة واحدة لم تتكرر بين إنسان وآخر منذ بدء الخليقة رغم ملايين البلايين من الأفراد .. وبات من المعلوم الآن أن لكل جسد شفرة كيمائية خاصة به بحيث يصبح من العسير ، وأحيانًا من المستحيل .. ترقيع جسد بقطعة من جسد آخر .. مـا معنى هذا ؟ .. معناه أن التفرد حقيقة جوهرية يشهد بها العلم .. وبالطبع لـم يكن الاهتداء إلى هذه الحقيقة يسيرًا .. لقد مر الأديب الفيلسوف الباحث عن اليقين بكثير من الأفكار التى أخذ زيفها يتكشف له شيئًا فشيئًا حتى بدت الحقيقة الكبرى ناصعة أمامه .. لقد اكتشف أن الذات الإنسانية تتألف من عنصر متعال مفارق .. فعن طريق النفس نتحكم فى الجسد .. وعن طريق العقل نتحكم فى النفس .. وعن طريق البصيرة نضع للعقل حـدوده ..

وهذا التفاضل بين وجود ووجود يعلو عليه ويحكمه .. هو أكبر إثبات واقعى يقود إلى الروح كحقيقة عالية متجاوزة للجسد وحاكمة عليه ، وليست ذيلا وتابعا تموت بموته .. وإلاّ فكيف نفسر استمرار جميع الوظائف الفسيولوجية والأفعال المنعكسة واللاّإرادية أثناء النوم .. إن النوم ثم اليقظة ـ وهو النموذج المصغر للموت ثم البعث ـ يكشف مرة أخرى عن ذلك العنصر المتعالى الذى يخلق بحضوره فى الجثمان أو الجسد النائم ـ فجأة وبلا مقدمات ـ هتلر أو نيرون أو غيره من الشخصيات .. فإذا بهذا الفرق الهائل بين هؤلاء يتجلى فى لحظات ..

إن هذا العنصر المتعالى هو الجزء المدرك فينا .. ولو أردنا مزيدا من التعرف عليه فلنقارن بينه ـ وهو الروح ـ وبين الجسد إزاء الزمن .. إننا سنجد أنفسنا أمام حقيقة إنسانية جزء منها غارق فى الزمن ينصرم معه

ويكبر ويشيخ ويهرم معه ، وهو الجسد .. وجزء آخر منه خارج عن هذا الزمن يلاحظه من عتبة سكون ويدركه دون أن يتأثر به أو ينصرم معه .. ولتبسيط ذلك فإنه لا يمكن لأحد أن يدرك الحركة وهو يتحرك معها فى نفس الفلك ، وإنما لا بُدّ له من عتبة خارجية يقف عليها ليرصدها منها .. وما دام الجزء المدرك فينا ـ وهو الروح ـ هو الذى يقوم بهذه المهمة ، وليس الجسد ـ فإن معنى ذلك أن الروح تؤديها من موقف خارج عن الزمن ، ومتجاوز له .. وهذا هو الذى يفسر لنا فناء الجسد وخلود الروح .. خلودًا تأتى معه فى الأوان الذى يقدره الوارث الباقى فتلبس ما شاء لها سبحانه وتعالى أن تلبسه .. وكل منا يستطيع أن يلمس هذا الوجود الروحى بداخله ، ويدرك أنه وجود مغاير فى نوعيته للوجود الخارجى النابض المتغير من حولنا .. كل منا بإمكانه أن يحس بداخله حالة حضور وديمومة وامتثال وشخوص وكينونة حاضرة دائما ومغايرة تمامًا للوجود المادى المتغير مع الزمن خارجه .

كان هذا محض نموذج لقنوات ثلاث فقط من ثمانى قنوات شق من خلالها الدكتور مصطفى محمود غمار باقى رحلته من الشك إلى الإيمان : العدل الأزلى ، ولماذا العذاب ، وماذا قالت له الخلوة ، والنوازن العظيم ، وأخيرا المسيخ الدجال . ومن خلال أسلوبه الذى عرضناه تستطيع أن تلمح مساره فى باقى قنوات الرحلة التى قطعها الطبيب الأديب والفيلسوف حتى أشرقت نفسه واهتدت إلى نور المعرفة وضياء اليقين .

*****